المذاهب وتنوّع الاتجاهات وتوزّع التيارات فيها

د. أدهم مسعود القاق، كاتب سوريّ

ثلاثةٌ هي المذاهب الأدبية والفنية في العصر الحديث، المذهب الكلاسيكي الذي ساد حتّى نهاية القرن الثامن عشر، والرومانسي الذي استمر حتّى أواسط القرن التاسع عشر، إلى أن ظهر المذهب الواقعيّ الذي تنوّع في توجّهات أصحابه، وبات يعبّر عن تطور الحياة المعاصرة بطرق متنوعة كثيرًا.

المذهب الكلاسيكي

ارتكز رواده في بناء قواعده على بعث الحضارة الإغريقية والرومانية، متكئين على نظرية المحاكاة لأرسطو (348 – 322 ق.م) التي تعتبر الفن محاكاة للواقع، لكن ليس الواقع كاملًا، بل واقع جانب أو فئة معينة منه تستطيع أن تعيد عالم المثل إليه، وقد استمدظذ اسم هذا المذهب من لفظة كلاس Class وتعني طبقة متميزة في المجتمع أو الجيش أو الأسطول أو فصل دراسيّ متميّز، ومن ثمّ فالكلاسيكية أفرزت مدارس عبرت عن طبقة أرستقراطية متميزة في المجتمع، تلك الطبقة التي تنتمي إلى الملوك والنبلاء وعائلاتهم، وقد بدأ ظهور هذا المذهب بعد انهيار الأدب في العصور الوسطى، فرفع الكلاسيكيون من شأن الأدب والفن بعد مراحل انهياره الخطيرة لاعتماده على التقليد والكذب والرياء، وهكذا نهض الأدباء بالفنون والآداب باعثين علامات مضيئة في التاريخ الإنساني استمدوه من نماذج الأدب اللاتيني واليوناني حيث أخذوا يحاكونه في طرق جديدة؛ بغية تمجيد الشخصية الكلاسيكية المرتبطة بأدب الطبقات الأرستقراطية في المجتمع، والتعبير

عن قيم طبقة النبلاء وتقاليدها وعائلاتها وأخلاقها، وكان مقياس جودة الأدب الرفيع هو مقدار اقتراب الأديب من قيم النبلاء الأقطاعيين ومثلهم.

المذهب الرومانسي

كلمة رومانس تتصل بآلاف المعاني منها مغرم، عاشق، غامض، متيّم، تائه، خيالي، غير واقعي، زائف، مريض، حالم، مريض،... إلخ، وكان نشوء هذا المذهب متوافقًا مع أفكار الثورة الفرنسية بعد أن تسلّمت السلطة السياسية في فرنسا عام 1789م رافعة شعار المساواة والحرية والعدالة والأخوة والكرامة، وكانت إيذانًا بظهور الطبقة البرجوازية الناشئة في أوروبا بمواجهة طبقة النبلاء الإقطاعيين بالمعنى الاجتماعي، وفي مواجهة الكلاسيكيّة المنهارة المتداعية بالمعنى الفني والأدبيّ.

اتسم نتاج الكاتب الرومانسي بالغموض والعاطفة الجيّاشة، كما كان يعيش في الخيال أكثر من الواقع، ولذلك بات الفن المناسب الملازم لكتابها هو فن الشعر، الذي يعتمد الخيال الشعريّ، الذي يجعل الشاعر يحلّق بعيدًا عن الواقع؛ ليخلق عوالم ذاتية كما لو كانت أحلامًا أسطورية، وترافق مع انتشار هذا المذهب مبدأ الفن للفن، لذلك سرعان ما انهارت أركانه على أرض الواقع المأساويّ الذي يعيشه البشر؛ ليفرز هذا الواقع مذهبًا جديدًا هو الواقعي.

المذهب الواقعي وتحولاته في القرن العشرين

ارتكز مؤسسو هذا المذهب على فكر أفلاطون في نظرية الانعكاس التي ترمي إلى أن العالم الخارجي انعكاس لعالم المثل، وعليه فالأدب والفن انعكاس للواقع المعيش، وعلى الأديب أو الفنان أن ينقل الواقع كما هو وبأمانة وصدق، وقد

ظهرت الواقعية، ولم يكن عمر المذهب الرومانسي في أوروبا قد طال، ففي عام 1857م بدأت تظهر ملامح الواقعية بمقابل النموذج الخيالي، وكان لظهور التصوير الفوتوغرافي أثرًا بالغًا في انتشار قيم المذهب الواقعي، وعونًا كبيرًا لهدم أركان المذهب الرومانسيّ.

وكان انتشار فن الرواية منذ أواسط القرن التاسع عشر من أهمّ دعائم هذا المذهب في تعبير رواده عن أفكارهم، ولكن هذا لم يكن بالأمر السهل فلم يكن هناك قبول للواقعية، وبخاصة بعد أن اتهمت بالكذب والادعاء لاعتمادها على تصوير الواقع الأليم وإبراز الصورة السيئة في الإنسان من ممارسات جنسية، وعربدة، ومن الأمثلة محاكمة فولبير على قصته مدام بوفاري، وبلزاك في الكوميديا البشرية التي يسخر فيها من واقع الإنسان لدرجة التهكم المرير، وسنجد أيضًا في الأدب الروسي رواية "آنا كارنينا" لتولستوي.

ولابد أن نذكر النموذج الواقعي في كتابة الأدب والفن، الذي بات النموذج الأمثل في عموم الإبداع الأدبي والفنيّ، وقد ساد برؤى متعددة في القرن العشرين؛ مترافقة فعالياته مع ظهور نظريات جديدة في كافة حقول المعرفة الإنسانية، ولاسيّما الفلسفية، حيث لكل منهج خلفية فلسفية في النظرية التي تلد المناهج من رحمها، ولكثرة الكشوفات والنظريات التي تقوم على انقاض بعضها البعض من جهة، ولازدحام الأحداث والحروب التدميرية في القرن العشرين من جهة أخرى، تنوعت تيارات المذهب الواقعي ومناهجه كثيرًا جدًا.

وفي تراثنا الإسلامي استخدامًا لمصطلح المذهب على غير استخدامه في العصر الحديث والمعاصر، فمصطلح المذهب الفقهي ظهر في أثناء القرن الثالث

الهجري، بعد تميز الاجتهاد عند الفقهاء في فهم أحكام الشريعة والطريقة، التي ينهجها المجتهد أو عدد من المجتهدين في الاستنباط، وكيفية الاستدلال والفروع التي تضاف في ضوء أصول المذهب، ولذلك فأصول المذاهب تتميز عن بعضها بسبب اختلاف أصحابها في مناهج الاجتهاد والاستنباط، وليس في الأصول الكلية أو الأدلة الإجمالية، وثمة مجموعة من العوامل السياسية والفكرية أسهمت في ظهور المذاهب الفقهية، فالغنى والتنوع الثقافي في القرن الثاني والثالث الهجري، أفسحا المجال؛ لنشأة عشرات من المذاهب الفقهية، عن طريق بلورة اجتهادات واتجاهات فقهية مختلفة، حتى أنها عدت خمسين مذهبًا، ولكن انقرض غالبيتها، ولم يبق منها سوى أربعة سنية، وأخرى غير سنية كالمذهب الجعفري والزيدي والإمامي والإباضي وغيرها...

ونستطيع القول أن المذاهب بدأت بالتكون منذ القرنين الثاني والثالث الهجريين اللذين تضمنا عملًا فكريًا واسعًا، وكانت الاتجاهات السائدة لغوية، أما القرن الرابع الهجري فبدأت الثقافة تتجه للقنونة والتقعيد كتيار جديد، وبذلك يقول محمد التونجي: "إذا امتاز التأليف في القرن الثالث الهجري بالاتجاه اللغوي، فإنّ القرن الرابع استمر على الاتجاه، إنما على أساس المصطلحات"(8) ومصطلح الاتجاه يرتبط بالكثرة من الفاعلين ضمن حقل معرفي، وبتعدد الرؤى الفردية المرتكزة على مناح ومسارات في التفكير متعلقة بآراء ونظريات علمية وفلسفية تترابط فيما بينها وتشكل وحدة متناسقة، مما يشكل موضوعيًا توجّهات متماثلة منهجيًا في تناول القضايا المتناولة، كما حصل في القرنين الثاني والثالث الهجريين حيث الغنى الفكري كما مرّ معنا آنفًا، والاتجاه لا يكتسب صفة الاستقرار في النظرية والتطبيق، كما هو معروف

عن المناهج والمذاهب في مرحلة تاريخية محددة، وهذا ما يلاحظ في القرن الرابع الهجري حيث تكاثرت التيارات وسط الاتجاه الموضوعي السائد، وتنوعت الرؤى والمناهج، ونحت على دروب اصطناع المصطلحات التي أفرزت المذاهب الفقهية المستقرة نسبيًّا.. إن مفهوم الاتجاه بهذا المعنى يقترب مما ورد في معجم المصطلحات العربية للتعريف بالاتجاه الموضوعي Objectire trend حيث يقول: "هو اتجاه نحو الأخذ بحكم كثرة من الأفراد، وبما تواضع عليه الناس منذ أمد بعيد، ويقصد به بعد فلسفة كانط Kant وجود الأخذ بالقيم في نظر جميع العقول لا في نظر فرد واحد"(9)

ولعلّ التنوع والغنى في الحياة الثقافية المنعكسة عن التطور الحضاري المرتبط بعصور النهوض لدى الأمم والشعوب الحية يفرز تنوعًا في الإبداعات الفردية، تؤول إلى تنافسٍ في الإبداع الأدبيّ والفنيّ، مما يفسح المجال لتشكيل اتجاهات فنية و فكرية وسياسية، وقد ذكر د. فوزي عيسى أن "ظهور الاتجاهات وازدهارها يرتبط برقيّ الحياة العقلية والفكرية والبيئة الحضرية المترفة والعوامل السياسية"(10) وفي مجال النقد الأدبي والفني الحديث هناك عدد من الاتجاهات التي تمتاز عن النقد القديم بسعة المجالات التي تشتغل عليها، وتعدد القضايا التي تتناولها، والتنوع في أدوات البحث العلمي ومن هذه الاتجاهات:

الاتجاه الفني

الذي يسعى المشتغلين عليه إلى دراسة التقنيات بقطبيها الفني والجمالي في النصوص، واستخلاص العناصر الفنية المكوّنة لها، مستعينين بالعناصر التاريخية والنفسية للتمكن من كشف خفايا الملامح الإبداعية بغية الفهم والتفسير.

وهذا الاتجاه مركزيّ بالنسبة للاتجاهات الأخرى، لاسيّما في حقول الأدب والفنون، فعند إهمال الناقد أو القارئ لهذا الاتجاه تتحول النصوص الفنية والإبداعية إلى مجرد وثيقة اجتماعية أو نفسية أو لغوية أو فكرية خالية من الخيال الشعري اللازم لكل عمل إبداعي.

الاتجاه التاريخي

يدرس فيه المؤثرات التي أسهمت في إنتاج النصوص ومنها دراسة شخصية وحياة كاتب النص وبيئته والظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها، والتي استمد الكاتب منها مقومات إبداعاته ورؤاه الفكرية.

الاتجاه النفسي

ويُظهِر الوضع النفسي الذي كان يعتري الكاتب زمن كتابة نصه، والكشف عن الملامح التي تثبت دعاوى الناقد الموجودة في ثنايا النص المنقود.

ويذكر أيضًا، **الاتجاه الاجتماعي** المنبثق من الواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية والنقد الثقافي.

و**الاتجاه التحليلي** الذي ارتبط اسمه وسيرورته بالواقعية التحليلية والبنيوية والتفكيكية والسيميائية والأسطورية والنقد النسوي وجماليات التلقي، وهو يتضمن التنوع العديد في مجالات النقد والقراءة والأدب والفلسفة التي تفيض عليها نتائج الثورات العلمية المتلاحقة معرفة وقيمًا ورؤى متغيرة على الدوام.

وقد يجمع الناقد بين هذه الاتجاهات، ويفيد منها جميعها عند تناوله للنصوص بالقراءة والنقد، وهذا التوجّه في النقد هو المأخوذ به في حركة النقد الأدبي العربي منذ أصدر شكري فيصل كتابه عن المناهج العربية في خمسينيات القرن الماضي

والذي استمده من رسالته في الماجستير بإشراف أمين خولي عام 1948م، من جامعة القاهرة بعنوان: (مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي، عرض ونقد واقتراح) و" وهو أول عمل علمي يتناول الاتجاهات والمناهج الأدبية العربية"(11) إضافة إلى إسهامات طه حسين ومحمد مندور في تلك الفترة.

إن مفهوم الاتجاه في ميادين الأدب والفن ينطبق على القديم والجديد، لأنه انعكاس للأحوال الاجتماعية والثقافية السائدة، كما أن الاتجاهات تتشكل من دون توافقات مع أصحابها، بل إن الأساليب والأدوات والموضوعات المطروقة بفترة تاريخية تحدد الاتجاه موضوعيًّا، وهذا ما نجده في الشعر العربي في العصر العباسي الأول حيث أدرج النتاج الشعري وفق اتجاهات ترتبط بمجمل النشاط الإنساني، وها هو ذا د. عيسى يذكر في كتاب اتجاهات جديدة في القرنين الثاني والثالث الهجريين: "(... وقد ركزنا على أربعة اتجاهات هي: شعر الجهاد ضد الروم، وشعر الطبيعة، و الاتجاه الحضاري، والشعر الصوفي"(12) وهكذا نجد أن الاتجاه يرتبط بجانب من الحياة الاجتماعية والثقافية أو السياسية في فترة زمنية محددة، ويشترك بالأساليب والتقنيات الفنية المستخدمة في عمليات الإبداع والتأليف.

وللتوضيح نورد مثالاً من المدرسة الرمزية التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وسارت في ثلاثة اتجاهات، اتجاه غيبي يختص بالعالم الذهني، وكيفية إدراكه للعالم الخارجي، واتجاه باطني يختص بكشف عالم اللاوعي والعالم الداخلي للفرد، واتجاه لغوي يكمن في وظيفة اللغة ومقدرتها على التداخل بين الحواس.

إضافة إلى أنّ مفهوم **التيار النقدي** مشتركٌ مع الاتجاه بتكثُّر الآراء وتعددها ولكن – حصريًّا – في حقل معرفي واحد مندرج في مكوّنات الاتجاه، مع وجود مشتركات بين هذه الآراء وبذلك نجد أن عثمان موافي يقصد بالتيارات الأجنبية: مجموع الأفكار والنظم والعادات، التي انتقلت من بيئات أجنبية إلى البيئة العربية متخذة شكل موجات، أو اتجاهات عامة (13)" وربّما الاتجاهات هنا جاءت بمعنى وجهات أو توجهات، وليس اتجاهًا يستوعب تيارات عديدة.

وقد ورد تعريفًا لمصطلح التيار Current في معجم المصطلحات يقول: "اتجاه عام يجذب الأذهان نحو فكرة معينة أو تذوق خاص، وذلك كتيار التجديد الذي ساد في مصر في مستهل القرن العشرين"(14) ولعله قصد بكلمة اتجاه في صدر تعريفه للتيار التوجه المحدد ضمن اتجاه موضوعي عام، فالاتجاه السائد في مستهل القرن العشرين كان نزوعًا ورغبة في اللحاق بركب الحداثة الأوروبية، وفي سياق هذا الاتجاه ظهرت تيارات التجديد في حقول معرفية متعددة كتيار الشعر الرومانسي ثم تيار الشعر الحديث، أو تيار الرواية الاجتماعية أو تيار الوعي فيها. ومن الأمثلة التي نوردها – أيضًا – اتجاه شعر الجهاد في العصر العباسي الأول، والتيار الأجنبي في شعر الجهاد في نفس العصر.

وهكذا نجد فروقًا جوهرية بين مصطلحات الاتجاه والتيار والمذهب، فالاتجاه موضوعيّ يظهر في عصر محدد تلبية لضرورات موضوعية، اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية تقتضي التغيير بمناح جديدة، مثل اتجاه الترجمة والمثاقفة في العصر العباسي الأول، أو اتجاه الثورة على قيم وثقافة العصور الوسطى في أوروبا، أو اتجاه اللحاق بركب الحداثة في النصف الأول من القرن العشرين في

البلدان العربية، وهذا الواقع الموضوعي الجديد المعبَّر عنه على شكل اتجاه يفرز أدوات بحثه بداية، فتتعدد المجالات، وفي مجال النقد الأدبي الحديث مثلًا نجد الاتجاه الفني والاتجاه التاريخيَ أو الاجتماعي أو النفسي، وثانيًا تظهر تيارات متعددة ومتباينة في رؤاها الفكرية والسياسية؛ لتحقيق ما تم التواضع عليه من قبل كلّ العقول التي تحمل تصورات تهتمّ بعملية التغيير الجارية، وهذه التيارات ترتبط بحقل معرفي واحد، وهي تحمل صفة التغير على عكس سمات الاتجاه الذي يتسم بالثبات النسبي.

ومن خلال تموّج التيارات في الاتجاه العام تظهر مناهج لتسهيل الوصول إلى الأهداف المرتجاة وضمان استمراراها، وفي سياق الاتجاهات والتيارات والمناهج المتضمن تغيرات تحدث في الواقع الموضوعي تتكون مدارس ونظريات وطرق ترتبط بفرد أو بمجموعة أفراد يتوافقون على رؤى متماثلة، إلى أن يتشكل المذهب الفني المحكوم لجملة قواعد وقوانين تقتضي من المؤلفين أو المبدعين المنضوين تحت لواء هذا المذهب الالتزام بها، حتى يسمَ المذهب المنتشر عصرًا تاريخيًا برمته، انتشرت فيه أفكار المذهب وقيمه وسادت فيه.

د. أدهم مسعود القاق، كاتب سوري

المصادر والمراجع

1) محمد التونجي، المنهاج (دارالملاح: سورية، حلب، ط1، 1986م) ص19

2) مجدي وهبه وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م) ص12

3) فوزي عيسى، اتجاهات جديدة في شعر القرنين الثالث والرابع الهجريين (دار العبادي: الإسكندرية، 2010م) ص3

4) عبد الحليم حسين، نظريات في دراسة المنهج الأدبي(إنترنت: الألوكة الأدبية واللغوية، 2012/1/15م(

5) فوزي عيسى، م. س، ص3

6) عثمان موافي، التيارات الأجنبية في الشعر العربي (دار المعرفة: الإسكندرية، 2010م) ص11

7) مجدي وهبه وكامل المهندس، م. س، ص128